وقف مركز مكة العالمي للهداية القرآنية
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

أُسس بناء القيم الحضارية في القرآن الكريم

من خلال قصة آدم (قراءة سننيه لقصة بدء الخليقة)

اسم الباحث/ـة

د/ نور الدين مولاي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

ثم أمّا بعد:

فإنّ الناظر في مسيرة الأفراد والجماعات وتقلب الأمم والحضارات عبر تاريخ البشرية المتطاول يجدها خاضعة لقوانين قاهرة لا تتخلف ولا تتغير، تسري على الناس جميعاً، لا تحابي مسلماً ولا تظلم كافراً، ويستوي أمام أحكامها الجميع، وإنّما يختلفون في مراتبهم بمقدار الأخذ بها والالتزام بشروطها، فهي قواعد كونية وسنن إلاهية لا تتخلف ولا تتبدل، وعلى حسب أخذ الناس بها واعتبارهم بنتائجها يُحدد مصيرهم في الدنيا والآخرة، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وقد جاء في القرآن الكريم بيان لكثير من هذه القواعد الإلهية الهادية إلى بناء الحضارة وعمارة الأرض، خاصة في آياته الباهرات التي فصلت أخبار الأنبياء والمرسلين من آدم إلى النبي محمد صلوات ربي عليهم أجمعين، وما فيها من بيان مفصل وتطبيق عملي لسنن الله الثابتة في النصر والخذلان، والمنع والعطاء، والبلاء والجزاء، والنهضة والعمران.

القضية المحورية:

إنّ من أجمع قصص القرآن للسنن المؤسسة لقواعد الحضارة وأسس العمران قصة آدم عليه وعلى نبينا السلام وقد جاءت مفصلة في الكتاب العزيز وفي موضع مختلفة منه، واشتملت على حكم وعظات بالغة بينت للإنسان وظيفته في الأرض وكيفية القيام بها ومحاذير مخالفتها.

الهدف:

تهدف هذه الدراسة إلى بيان أهم السنن الكونية التي بينتها قصة آدم وأهم القيم الحضارية المستفادة منها ثم تلمس شواهدها في قصص الغابرين أفراداً

وأمماً، ثم بيان دور هذه القيم في مهمة عمارة الأرض التي كلف بها الإنسان، وتلمس شواهدها من سيرة سلف هذه الأمة.

المنهج:

سأحاول في هذا الدراسة سلوك المنهج الاستقرائي التحليلي، فاستقصي مواضع قصة آدم في القرآن ثم أفسر أحداثها من خلال كلام علماء التفسير ثم أخلص إلى تركيب تلك المعاني في قوالب قيم حضارية هادية للإنسان في تكاليف عمارته للأرض.

المنهجية:

سأحاول في هذه الدراسة على النصوص الثابتة والصريحة قصد تجلية المعاني بشكل واضح ودون الحاجة إلى مناقشات وترجيحات، لهذا سأعتمد على آيات القرآن وأحاديث الصحيحين قدر الإمكان، وسأعتمد في التفسير على القول المشهور والراجح عند أكثر المفسرين معتمداً في ذلك على تفسير القرطبي في الغالب وابن كثير وأضواء البيان في بعض المواضع.

الإضافة:

تسعى هذه الورقة إلى تقديم قراءة سننية للقرآن الكريم من خلال قصة نموذجية وهي قصة آدم عليه وعلى نبينا السلام ثم رصد تمثلاتها في القصص القرآني والقصص النبوي، واستلهام أهم القيم الحضارية المستفادة منها، قصد الكشف عن أسس عمارة الأرض بهدايات القرآن قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود:٦١].

الخطة:

قسمت هذه الورقة إلى تمهيد، وثلاثة محاور:

التمهيد: عرفت فيه السنة الإلهية والحضارة والقيم، وهي أهم الاصطلاحات التي تناولها البحث.

- **قصة آدم في القرآن الكريم بنظرة سننية:** وبينت فيه الأطوار السننية الثلاث التي مرّ بها آدم في الجنة.
- **مشاهد السنن الثلاث في الأفراد والأمم:** وذكرت فيه تمثلات هذه السنن في الأفراد والجماعات من خلال قصص القرآن وصحيح السنة.
- **القيم الحضارية المستفادة من قصة آدم:** ذكرت فيه تجليات هذه السنة في مسار الحضارة الإسلامية ككل ثم ذكرت أهم القيم المستفادة منها.

ثم في الأخير خاتمة بأهم النتائج وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تمهيد:

قبل البدء في مسائل هذه الورقة البحثية لا بأس من التقديم لها بمدخل نعرّف من خلاله بالسنن الإلهية والقيم الحضارية، فهما اصطلاحان ضروريان لفهم المعاني المراد الكشف عنها في هذا البحث، ولن أخوض كثيراً في تقصي دلالات ألفاظهما بل سأكتفي بتعريف موجز لكل منهما مع بيان العلاقة الموجودة بينهما.

١. **تعريف السنن الإلهية:**

جاءت كلمة السنة في اللغة لعدة معاني، منها الطريقة والسيرة، حسنةً كانت أو قبيحة، من ذلك قول الشاعر: فلا تَجْزَعَنْ من سُنَّةٍ أنتَ سِرْتَها *** فأول راضٍ سُنَّةً مَنْ يَسيرُها.(١)

ومنها أيضاً قول النبي ﷺ:" من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء."(٢)

وسنة الله: أحكامه وأمره ونهيه؛ وسنّها الله للناس بيّنها، وسن الله سنةً أي بيّن طريقاً قويماً، قال تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾.(٣)[الفتح:٢٣]

وعبر عنها القرآن أيضاً بكلمات الله وبكلمة الله، قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[الأنعام:١١٥].

---

(١)ينظر لسان العرب، محمد بن مكرم ابن منظور، (بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ)، ج:١٣، ص:٢٢٠، والصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٧م)، ج:٥، ص:٢١٣٩.

(٢)صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، رقم:١٠١٧، ج:٢، ص:٧٠٤.

(٣)لسان العرب، ج:١٣، ص:٢٢٥.

قال في شرح الطحاوية:" وكلمات الله نوعان: كونية، ودينية، فكلماته الكونية هي التي استعاذ بها النبي ﷺ في قوله: "أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر"،(١) قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[يس:٨٢]،... والكون كله داخل تحت هذه الكلمات، وسائر الخوارق، والنوع الثاني: الكلمات الدينية، وهي القرآن وشرع الله الذي بعث به رسوله، وهي أمره ونهيه وخبره."(٢)

فكلمات الله الكونية هي سنة الله الحاكمة للكون ونواميسه في تسيره وعمارته، المتعلقة بالخلق والمشيئة، فكما تضبط حركة النجوم في السماء فإنّها تضبط حركة الدماء في الأجساد، وحركة الأفراد والجماعات على الأرض، ولا خيار للعباد فيها وتسمى كذلك آيات الله في الآفاق وفي الأنفس، وهي التي لا يجاوزها بر ولا فاجر.

وأمّا كلماته الدينية أو الشرعية فهي متعلقة بخطاب الله للمكلفين، والذي يبين أمره ونهيه، ووعده ووعيده، وهذه الكلمات يملك معها العبد الاختيار، فيقف عندها البر ويتجاوزها الفاجر، والله سبحانه وتعالى يجازي الأبرار على برهم ويعاقب الفجار على فجورهم.

فالسنن الإلهية هي: القواعد الثابتة والعادات المطردة والموازين الحاكمة لحركة الكون ومسارات البشر وتقلباتهم في البلاد، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في بيان معنى اطّرادها:" فسنة الله هي العادة التي تتضمن أن يفعل بالثاني مثل ما فعل بنظيره الأول،"(٣)

---

(١) مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل، الرقم: ١٥٤٦١، ج:٢٤، ص:٢٠٢.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، محمد بن علاء الدين ابن أبي العز الحنفي، (الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية، والأوقاف والدعوة والإرشاد، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ)، ص:٥١٠.

(٣) مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، (المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦هـ) ج:١٣، ص:٢٠.

ويقول فيها ابن القيم رحمه الله:" فسنته سبحانه عادته المعلومة."[١]

والحكمة ظاهرة في نصب هذه السنن معالم بينة في سور الكتاب المسطور وفي آيات الكون المنظور، فهي قاهرة لمسارات البشر أمماً وشعوباً، أفراداً وجماعات، ومن علمها وتبصرها استطاع تلمح واستشراف مآلات الكثير من القضايا المهمة في حياة البشر، وعلم النهايات المحتومة لكثير منها، ولذلك قرن الله سبحانه وتعالى في مواضع عدة من كتابه الحكيم قصص الغابرين بالأمر بالاعتبار والاتعاظ، قال تعالى: ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [الحشر:٢]، و قال تعالى: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ .[يوسف:١١١]

٢. مفهوم القيم الحضارية.

قبل التعريف بالقيم الحضارية نحن بحاجة لمعرفة مدلول كلمة حضارة، وهي لفظة مشتقة من الحضر وهم سكان الحواضر ومفردها حاضرة، وخلافهم البدو، والنسبة إلى الحضر حضري، ومعناها الإقامة في المدن والقرى، وليس في معاجم اللغة عند المتقدمين ذكر للحضارة بوزنها ومعناها المستعمل اليوم، فهي تعبير حادث للدلالة على التمدن والعمران.[٢]

ويعتبر العلامة ابن خلدون من أوائل المستعملين لهذا اللفظ والمعرفين له حين قال:" الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضرورة من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه، وتفاوت الأمم في القلّة والكثرة تفاوتًا غير منحصر." [٣]

والملاحظ على هذا التعريف هو حصره للحضارة في صور الرفاه الزائد على ضرورات العيش المصاحب غالباً للإقامة في الحواضر، وقد جاء هذا التعريف

---

(١)شفاء العليل، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، (بيروت: دار المعرفة، ١٣٩٨هـ)، ص:١٩٩ .

(٢)ينظر تاج العروس، ج:١١، ص:٣٧، وتكملة المعاجم العربية، ج:٣، ص:٢٢٦.

(٣)تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، (بيروت: دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٩٨٨)، ج:١، ص:٤٦١.

في سياق تفصيل ابن خلدون لأحوال الناس عند انتقالهم من طور البداوة إلى طور الحاضرة، وأمّا المصطلح الذي استعمله لدلالة على الحضارة بمعناها اليوم فهو العمران، التزام فيه التعبير القرآني، فمدلولها عند المسلمين منضبط بنصوص الشرع وجماعه في عمارة الأرض بإقامة أحكام الله عزّ وجلّ فيها، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١].

وعلى هذا فإذا كانت الحضارة تعني في أصل اللغة إقامة مجموعة من الناس في الحضر، أي في مواطن العمران، سواء كانت مدنًا أم حواضر أم قرى، فإن معناها قد توسع عند المؤرخين والباحثين الاجتماعيين حتى صار شاملًا لجميع أنواع التقدم والرقي الإنسانيين؛ لأنهما لا يزدهران إلا عند المستقرين في مواطن العمران .

وأمّا القِيم فهي: جمع قِيمة وأصلها في اللغة ما يقوم مقام الشيء، ومن ذلك أطلقت على أثمان السلع فهي تقوم مقامها، فيقال: قومت السلعة، أي أعطيتها الثمن الذي يعادل مقامها، ويقال أيضاً: استقمت السلعة أي بينت ثمنها.(١)

وتطلق القيمة أيضاً على قدر الشيء، فيقال: قيمة السيف أي قدره، ويقال: ما لفلان قيمة، أي ما له ثبات ودوام على أمر،(٢) وهذا المعنى هو الأقرب لاستعمالها الحديث فهي تطلق على المقدرات المعنوية عند الشعوب والتي تثمنها في أعرافها وعاداتها، فيقال قيمة العدل وقيمة التسامح وقيمة التكافل وغيرها، ويدخل في معناها كل الفضائل الدينية والخُلقية والاجتماعية التي تقوم عليها حياة المجتمع الإنساني.(٣)

---

(١)الصحاح، ج:٥، ص:٢٠١٧.

(٢)المعجم الوسيط، (القاهرة: دار الدعوة، د.ت)، ج:٢، ص:٧٦٨.

(٣)ينظر معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر، (عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ)، ج:٣، ص:١٨٧٨.

ولأنّ الحضارات البشرية تتفاوت فيما بينها تفاوتاً بيناً فإنّ من أهم المعايير التي يقاس بها هذا التفاوت معيار القيم، خاصة تلك الخادمة للمجتمع الإنساني ككل، وتكون من الوسائل التي تمنحه سعادة التعاون والإخاء والأمن والطمأنينة والرخاء، وتمنحه سيادة النظام والعدل والحق، وانتشار أنواع الخير والفضائل الجماعية.

فالقيم الحضارية هي تلك الحقائق الأساسية والمهمة في بناء المجتمعات، والتي تُغرس فيه من خلال أفكار حية تتحول بفعل الجهد والممارسة إلى عادات ثابتة ومستقرة، وتعطي خاصية للشعوب التي تتحلى بها، وتصبح بمرور الزمن عنواناً لحضارتها.

وقد فاقت الحضارة الإسلامية غيرها من الحضارات بخصائصها القرآنية وميزها الربانية، فهي حضارة توحيد وحق وعدل، وقد جاء في القرآن الكريم الكثير من الآيات المظهرة والمبينة للقيم العالية في الإسلام، والتي يصعب حصرها والإحاطة بها، ولكننا نستمدها ونستكشفها كلما تدبرنا آيات القرآن الكريم المشتملة على أحكامه وعظاته، ومن أبلغ تلك العظات العبر المستفادة من القصص القرآني، والتي تتجلى فيها سنن الله الغالبة والقاهرة ومن نماذجها الباهرة قصة آدم عليه السلام المرتبطة بنشأة الخليقة، والتي سأسعى لتحليل عناصره في المحور التالي.

١. قصة آدم في القرآن بنظرة سننية:

لقد جاء ذكر قصة آدم في سبعة مواضع من القرآن الكريم؛ في سور البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه، وص، وتفاوت تناول أحداثها في هذه المواضع طولاً وقصراً وبسطاً واختصاراً، حيث فصلت بعض السور ما أجمل في أخرى، ليتم في الأخير بناء قصة بدء الخليقة من خلال تكامل مشاهدها في مواردها السبعة، وتجلت بذلك صورة من صور الإحكام العام الذي وصف الله جل وعلا به آيات التنزيل، حيث يكمل بعضها بعضاً

ويصدقه، قال تعالى:﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾. [هود:١]

١,١. البيان الأول:

سمى الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بياناً للنّاس قال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾[آل عمرن:١٣٨]، والبيان معناه الإيضاح والظهور وكل ما يتبين به الشيء من الدلالة وغيرها فهو بيان، وكل هذه المعاني موجودة في كتاب الله الكريم.(١)

وقد استهل ذكر قصة آدم عليه السلام في الكتاب العزيز بخطاب موجز أعلن فيه الحق تبارك وتعالى لملائكته الكرام أصالةً ومن ورائهم الخلائق أول بيان يعلم ببدء خلافة البشر على الأرض، وكل ما جاء بعد ذلك الإعلان في الملإ الأعلى من الوحي المنزل على أنبياء الله عليهم السلام إن هو إلاّ تفصيل وشرح لذلك البيان الخالد، المختصر في ألفاظه والمبسوط في معانيه، قال تعالى:﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ ﴾.[البقرة:٣٠]

لقد كان الملائكة أول من استقبل هذا البيان بالتسليم والخضوع، وزادوا على ذلك بطلب الاستبيان والاستعلام من الخالق جلّ وعلا عن حال ومآل هذا المخلوق المستخلف، قال تعالى مبينا هذا الاستفسار على لسان ملائكته: ﴿ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ﴾[البقرة:٣٠] وقد أجمع المفسرون على إسقاط معنى الاعتراض في هذا السؤال، فهو لا يليق بمقام عباد الله المكرمين الذين لا يسبقون الله عزّ جلّ بالقول ويفعلون ما يأمرون، وكل ما جاء من أوصاف للملائكة في القرآن فهو مخرج على وجه المدح.(٢)

---

(١)الصحاح، ج:٥، ص:٢٠٨٣.

(٢)ينظر تفسير القرطبي، ج:١، ص:٢٧٤.

لكنّ المفسرين اختلفوا في بيان نوع السؤال الذي طرحه الملائكة وسببه على عدة أقوال، ولا يهمنا في هذه الورقة استقصاء جميع ما قيل حول هذه المسألة وسنكتفي بكلام القرطبي الذي أجمل فيه أغلب أقوال العلماء في بيان معنى سؤال الملائكة حين قال:" المعنى أنهم لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن في بني آدم من يفسد، إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد، لكن عمموا الحكم على الجميع بالمعصية، فبين الرب تعالى أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد، فقال تطييباً لقلوبهم: إني أعلم."(١)

فسؤال الملائكة هو استكشاف عن الحكمة من وراء هذا الخلق الجديد على ما علمهم الله في سابق أمره في الخلائق، فهل يكون هذا المخلوق الجديد من جنس ما بيّن لهم قبل، فيفسد في الأرض ويسفك الدماء أم أنّ له شأن آخر لم يطلعوا عليه بعد؟

بعد هذا الاستفسار من الملائكة الكرام جاء جوب الحق تبارك وتعالى في صورة تنبيه غاية في الاختصار كما كان الإعلان الأول عن الخليفة غاية في الإيجاز، لكنّ هذا الردّ الإلهي المقتضب جاء حاملاً في طياته الكثير من الأجوبة كلها معلقة بمسار الأحداث القادمة، فلم يزد ربنا تبارك وتعالى في جواب ملائكته بعد سؤالهم على "تطييب قلوبهم" كما عبر القرطبي بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾. [البقرة:٣٠].

إلى هذا الحد انتهى البيان الأول المعلن عن بدء الخليقة، وقد جاء في مواضع متعددة من القرآن بتفاصيل متنوعة يمكن لنا أن نجمل من خلالها أهم **النقاط التي ذكرت في هذا البيان الخالد بالشكل التالي:**

١. العنوان الرئيس للبيان هو الإعلان عن خلق جديد.

٢. عيّن البيان المكان الذي سيعيش فيه هذا الخلق، بقوله: في الأرض.

(١)المرجع السابق.

٣. ووصف المادة التي خلق منها، وهي مادة ترابية ذكرت بأصلها الجامع وهو الطين، ووصفت بأنّها طين لازب، أي لزج يلزق باليد، ووصفت كذلك بأنّها صلصال من حمأ مسنون، أي طين أملس نتن.(١)

٤. وذكر البيان أنّ هذا المخلوق سيكون سوي الصورة وفي أحسن تقويم، وفيه نفخة من روح الله عزّ وجل، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾. [الحجر: ٣٩]

٥. بعد أن عدد البيان الإلهي خصائص وصفات هذا المخلوق بيّن وظيفته التي خلق لأجلها بقوله: "خليفة"، وفيها وجهان من التفسير للعلماء، الأول: المراد بالخليفة أبونا آدم لأنه خليفة الله في أرضه لتنفيذ أوامره، وقيل: لأنه صار خلفاً من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبله.(٢)

٦. وفي بعض المواضع لم يسمه خليفة وإنّما سماه بشراً، وأصل معنى الجذر اللغوي (بشر) الظهور مع حسن وجمال، فالبَشرة ظاهر جلد الإنسان، وسمي البشر لظهورهم، والبشير حسن الوجه.(٣)

وفي هذه التسمية وما تحمله من معاني دلالة على وجود الغريزة في هذا المخلوق، فهو مخلوق ظاهرٌ حسن الصورة، ليس محجوباً عن الأنظار كالجن، وليس كباقي المخلوقات المستورة بشعورها وأوبارها وريشها، بل يفتقر إلى اللباس الذي يستر به عورته، والتي ستكون من أعظم مداخل الفتنة عليه.

هذه أهم العناصر التي جاءت في البيان الأول المصاحب لخلق آدم، والملاحظ عليها أنّها عناصر معرفة بحقيقة هذا الخلق وبوظيفته، وسكت البيان عن تفاصيل أخرى متعلقة بمآله في الجنة ومدة بقائه في الأرض، ثم انتقل المشهد

---

(١)ينظر تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر ابن كثير، (دار طيبة للنشر والتوزيع: الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ)، ج:٧، ص:٨، وج:٤، ص:٥٣٣.

(٢)أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، (بيروت: دار الفكر، ١٤١٥هـ)، ج:١، ص:٢٠.

(٣) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ)، ج:١، ص:٢٥١.

القرآني مباشرة إلى سرد القصة التي عاشها هذا المخلوق في الجنة قبل نزوله إلى الأرض.

٢,١. طور العطاء والبلاء والجزاء:

بعد البيان الإلهي الموجز ثم مشهد سؤال الملائكة الذي أعقبه تبدأ سورة البقرة في سرد المراحل التي مرّ بها آدم عليه السلام وهو في الحضرة القدسية، والتي سنتخذ منها أساساً لبيان الأطوار السننية الثلاثة التي مرّ بها في الجنة قبل نزوله إلى الأرض، والتي ستصبح بعد ذلك سنناً حاكمة ومشاهدة في حياة بنيه من بعده وإن اختلفت أشكالها ولكن لم تتبدل حقيقتها، سواءً كانوا أفراداً أو جماعات، فما من أحد إلا ومرّ أو سيمر بهذه المراحل الثلاث، علم ذلك أو جهله، فلم يكن آدم أباً للبشر من جهة الجنس فقط بل كان أيضاً أباً لهم في التجربة العملية التي عاشها في الجنة قبل نزوله إلى الأرض، وأبناؤه من بعده معرضون لنفس أطوار هذه التجربة في حياتهم وإن اختلفت صورها.

سأحاول في هذا العنصر الكشف عن هذه الأطوار الثلاثة التي مرّ بها آدم في الجنة، ثم الخلوص منها إلى تأصيل قرآني لثلاث سنن إلهية والتي سنرى تجلياتها في صور أخرى غير قصة آدم من خلال قصص القرآن الكريم في أحوال الغابرين وقصص السنة النبوية عن الأولين.

١,٢,١. مرحلة العطاء:

تمثل هذه المرحلة الطور الأول الذي مرّ به آدم والذي يمكن تسميته بمرحلة العطاء، إذ كل ما حدث لآدم فيها كان عطاءً من الله عز وجلّ بلا سؤال، فخلقه في الملإ الأعلى وتكريمه، واحتفاء الملائكة به، كلها نعم وعطايا واصلة من الله عزّ وجلّ له ولذريته من بعده، ويمكن تلخيص هذه العطايا الربانية في **ثلاث نعم رئيسة:**

١- نعمة الإيجاد والتكريم:

لقد رأينا عند الكلام عن البيان الأول صوراً من النعم التي نالها آدم عند خلقه، وأعظمها نعمة الإيجاد، فقد وجد آدم من العدم بعد أن لم يكن شيء مذكور، وركب في أحسن تصوير فأخرج بشراً سوياً، فأنعم الله عليه بحسن الصورة وشرفه بنفخ روحه فيه، وكرّمه بسجود الملائكة له، وهذه نعم جليلة حاصلة لآدم أصالةً ولأبنائه بالتبع.

وقد ذكر الله جلّ وعلا الخلق والتصوير في سياق الامتنان على البشرية جمعاء، وخص آدم منها بزيادة فضل مع التنصيص عليه وهو سجود الملائكة قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾. [الأعراف:١١]

٢- نعمة الإرشاد:

بعد نعمة الإيجاد جاءت نعمة الهداية والإرشاد وهي أعظم النعم التي رُزقها آدم ورُزق معها العلم بلا تسبب منه ولا سعي، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[البقرة:٣١]، فإذا كان الخلق والتصوير هو ظاهر النعمة فإنّ الهداية والإرشاد هي باطنها وحقيقتها، وعند فقدها يتمنى المخلوق لو أنّه لم يوجد أصلاً وبقي على أصل مادته الأولى تراباً تدوسه الأقدام، وهذه النتيجة إن لم يعلمها الإنسان في حياته فسيصل إليها عند معاينة الحساب والعقاب، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾[النبأ:٤٠].

٣- نعمة الإمداد:

بعد النعمتين السابقتين جاءت النعمة الثالثة التي أكرم الله بها آدم عليه السلام وهي نعمة الإمداد، قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا ﴾ [البقرة:٣٥]، وهذه آية جمعت أصول نعم الإمداد الواصلة لآدم من ربّ العزة، فبعد أن أخرج إبليس عند كفره من الجنة وأبعده عنها بوأ

آدم الجنان يأكل ثمارها ويتفيأ ظلالها ويشرب من أنهارها، فلا يحتاج معها إلى زيادة مدد.(١)

وقد تعددت موارد فيض العطاء الرباني في هذه المرحلة، ففيها خلق الله لآدم زوجه طمأنينة لروحه، وفيها أسكنه الجنة حيث لا يجوع ولا يعرى ولا يظمأ ولا يضحى، وكل هذه النعم تتجلى في الأمر "اسكن" الذي تلقاه آدم، والذي يدل على نعمة السكون والراحة والاطمئنان، وتتجلى أيضاً هذه النعم في كلمة: رغداً، والتي تحمل في طياتها معاني العيش الدار الهني الذي لا عناء فيه.(٢)

كان هذا تصوير سردي لمعاني العطاء وتجلياتها في هذا الطور الأول الذي مرّ به آدم في الجنة، وهو طور مؤسس للذي بعده، ولا ينفك عنه أبداً فما من عطاء إلا وبعده بلاء واختبار من المعطِي للمُعطَى.

٢,٢,١. مرحلة البلاء:

قبل أن نتناول تفصيل هذه المرحلة لا بأس من الإشارة إلى دور إبليس في هذه القصة، فهو لم يرد له ذكر في المشهد الأول الذي فصلناه، وإنّما جاء ذكره في مرحلة لاحقة وهي مرحلة التكريم والاحتفاء بآدم وذلك عندما أمر الله سبحانه وتعالى ملائكته بالسجود لآدم سجود تشريف فأبى هذا المخلوق واستكبر، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾. [البقرة:٣٤] فعاقبه الله سبحانه وتعالى على كفره بالطرد من الجنة ومن رحمته، قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف:١٣]، وبين لآدم أنّ هذا عدو له ولزوجه ولذريته من بعده إلى يوم الدين، وأنّه يسعى لشقائه بإخراجه من الجنة، وفي

(١) ينظر تفسير القرطبي، ج:١، ص:٢٩٨.

(٢)ينظر المرجع نفسه، ج:١، ص:٣٠٣.

ذلك تنبيه لآدم على الدور الذي سيلعبه هذا المخلوق في مرحلة البلاء قال تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾[طه:١١٧].

بعد فصل العطاء المحمل بالنعم الكثيرة جاء فصل الاختبار، ولم يكن امتحان آدم الذي سيمر به ثقيلاً في تكاليفه، لكنه كان عميقاً في دلالته، فبعد أن أحل الله تبارك وتعالى الجنة لآدم وزوجه يأكلان ويشربان حيث شاءا، ويذهبان فيها كيف شاءا وحذرهما من عدوهما الأزلي حرم عليهما شجرةً واحدة بعينها فقال لهما: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[البقرة:٣٥].

ظاهر من هذا الابتلاء أنّه امتحان سهل، حرم فيه على آدم وزوجه شجرة واحدة وأبيح لهما أشجاراً لا عد لها ولاحد، ولوترك آدم وزوجه أمام هذا الامتحان دون تدخل طرف ثالث لما أكلا منها أبداً، ولكنّ أمر الله غالب فقد خلق آدم لعمارة الأرض لا الجنة، لذا نجد في هذه المرحلة الاختبارية الحساسة حيث يحتاج الإنسان إلى الناصح والموجه بروز دور عدو آدم الأول إبليس مرةً أخرى، والذي لبس هذه المرة ثوب الناصح الأمين وخلع ثوب الكبر والاستعلاء ودل آدم على الشجرة بغرور، وزين له الأكل منها وحلف له ولزوجه يميناً كاذبة اغتر بها آدم وهو في أول امتحان، وفشل أمام إغراء الخلود والملك الباقي، قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾[طه:١٢٠].

فأكل آدم من الشجرة وفشل في امتحانه المؤقت وبهذا المشهد كانت نهاية طور البلاء بالنسبة لآدم، وقد عرض القرآن ما حدث لآدم مع ابتلاء الشجرة بأوجه متعددة ووصف معصية آدم الأولى والأخيرة في آيات كثيرة خلاصتها في قوله: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه:١٢١].

وجدير بالذكر هنا أنّ ما حدث لآدم في الجنة كان قبل نبوته، وقد بين القرطبي

رحمه الله في تفسيره نفاسة هذا القول الذي نقله عن أبي بكر بن فورك رحمه الله حين دفع شبهة وقوع المعصية من الأنبياء التي قد ترد على آدم باعتبار أنّ القرآن صرح بذلك وهو أول الأنبياء إلى ذريته، قال ابن فورك:"كان هذا من آدم قبل النبوة، ودليل ذلك قوله تعالى:" ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى،" فذكر أن الاجتباء والهداية كانا بعد العصيان، وإذا كان هذا قبل النبوة فجائز عليهم –أي الأنبياء– الذنوب وجهاً واحداً، لأن قبل النبوة لا شرع علينا في تصديقهم، فإذا بعثهم الله تعالى إلى خلقه وكانوا مأمونين في الأداء معصومين لم يضر ما قد سلف منهم من الذنوب."(١)

ومن فوائد هذه المرحلة أن العدو كثيراً ما يأتي في الثوب الصديق، وأنّ الابتلاء كثيراً ما يكون من جنس العطاء، فآدم أعطه الله في ما أعطاه شجراً كثيراً وحرم عليه شجرة واحدة، فوقع الالتباس ومالت النفس إلى ضم شجرة ممنوعة إلى ما لا يعد من أشجار مباحة، فكانت النتيجة الحرمان من الكل كما سنرى في الطور الأخير مرحلة الجزاء.

٣,٢,١. مرحلة الجزاء:

بعد العطاء ثم البلاء تأتي المرحلة الأخيرة وهي الجزاء، وفيها تكون نتيجة الامتحان الذي أسس على نعم العطاء، وتكتمل دورة السنن الثلاث، وفي هذه القصة لم يبين لنا مدة مكث آدم في الجنة قبل نزوله، لكن ذكرت لنا أنّ مرحلة الجزاء كانت آخر عهد له فيها قبل استقراره في الأرض.

لقد كان الجزاء سريعاً وحاضراً لآدم فما إن ذاق الشجرة وما وصل إلى مرحلة التغذي والشبع، حتى بدأت مقدمات الجزاء تغير حاله، وانكشف الستر عن عورته، وجاءه الخطاب المدوي بلوم وتقريع وعتاب على فعلته تلك هو وزوجه:" ألم أنهاكما؟"

(١) تفسير القرطبي، ج:١١، ص:٢٥٧.

ثم تلاحقت فصول محاكمة آدم في الجنة بعد إقراره وخضوعه، فبدأت محاكمته بعرض المخالفات والتذكير بالتحذيرات، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾[الأعراف:٢٢].

بعد سماع آدم وهو في ذلك الموقف الرهيب لائحة المخالفات المؤسسة على نسيانه لأوامر ربه، بدأ من موقف المعترف المقر يقدم اعتذاره وتوبته بين يدي المحكمة الإلهية راجياً عفوها وغفرانها، قال تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[الأعراف:٢٣].

ثم جاء في ختام هذه المحاكمة الربانية وقت صدور الحكم النهائي والقول الفصل من رب العزة في هذه التجربة المؤقت واضحاً ومدوياً في حق أطراف القضية الثلاثة: آدم وزوجه وإبليس اللعين، قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ [الأعراف:٢٤]

بهذا المشهد ختمت قصة آدم في الجنة والتي بينت قصة بدء الخليقة حالها ومآلها في الصراع الأزلي بين الحق والباطل، ليبدأ بعدها آدم الامتحان الحقيقي له ولذريته من بعده في عمارة الأرض، لقد خلق آدم وخلقت معه السنن الثلاث: العطاء ثم البلاء ثم الجزاء، وهي سنن دائمة باقية ما بقي البشر.

٢.مشاهد السنن الثلاث في الأفراد والأمم:

يمكن لمن يقلب النظر في سير البشر أن يجد صدق هذه السنن وتمثلاتها الواقعية في قصص الأولين، بل إن تدبرها البصير في نفسه لوجد تجلياتها في حياته المتقلبة بين منح العطاء ومحن البلاء، ولا أريد في هذا العنصر جرد التاريخ المليء بالعبر والعظات والتفتيش فيه عن شواهدها في حياة الناس، ولكن سأقتصر على بعض مشاهدها في عظات وعبر الكتاب والسنة، ففي النصوص الشرعية قطعية الثبوت وواضحة الدلالة غنية لا نحتاج معها

إلى كثير تدليل على هذه السنن الإلهية الثلاث.

وسأستهل هذه المشاهد بقصة إبليس لأنه مصاحب لنشأتها ومستمر هو وجنوده في تفاصيلها إلى قيام الساعة، ثم سأزيد صوراً لمشاهد أخرى أحسبها تمثل لهذه السنن الثالث في حياة الناس، وحتى لا تخرج هذه الورقة عن الشكل المطلوب وتصبح أطول من اللازم، سأعرض هذه المشاهد باختصار مستعيناً بمرامز دالة على صورة المشهد دون التطويل بذكر تفاصيله.

١,٢. قصة إبليس:

لا أحد يعلم على وجه القطع واليقين كيف دخل إبليس في زمرة الملائكة؟ ولا لما ظهر دوره عند رفض السجود ولم يظهر عند الإعلان عن الخليفة أو عند امتحان الأسماء؟ وكلها معاني أغفلها القرآن لأنّه لا يبني عليها عمل وليس في استقصائها فائدة ترجى سوى إشباع الفضول الإنساني المغرم بتتبع التفاصيل.

ولا أريد هنا التطويل في تتبع أقوال المفسرين التي حاولت الإجابة على تلك الأسئلة،

ولكن سأحاول تلمس السنن الثلاث في مسار هذا المخلوق في الجنة من خلال النصوص الثابتة.

١. العطاء:

لا نحتاج إلى كبير عناء لإظهار العطاء الذي خص به إبليس، والمتمثل في المنزلة العلية التي حظي بها في الحضرة القدسية، فقد كان مخاطباً بما تخاطب به الملائكة على القول أنّه ليس من جنسها لكنه خوطب لمكانته معها، ولو لم يكن داخلاً في الخطاب لما صح الاستثناء،[١] قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء:٦١].

(١)ينظر تفسير القرطبي، ج:١، ص:٢٩٤.

لقد أعطي منزلة وعلما وعبادة كما جاء في بعض التفاسير، جعلته يحظى بتلك المكانة، ولأنّ سنة الله في العطاء أن يتبعه البلاء والاختبار جاء اختبار إبليس في صورة خلق آدم، ابتلاء مخلوق بمخلوق.(١)

٢. البلاء:

كان اختبار إبليس واضح أمر بالسجود لآدم فرفض، واعترض في مقام لا يجوز فيه الاعتراض، فسقط في امتحانه سقوطاً أبدياً، وكانت نتيجة هذا الامتحان رفض ونكوص وجحود، اختصرت في قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر:٣١]

٣. الجزاء:

بعد رفض إبليس للسجود جاء طور الجزاء والعقاب من خلال محاكمة عادلة بدأت بعرض التهمة:" ما منعك أن تسجد إذ أمرتك،" ليرافع هذا المخلوق عن نفسه بقوله:" أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين،" بهذه البساطة وبهذه الحجة الواهية والتي فيها إصرار على رفض الأمر الإلهي، دافع هذا المخلوق عن فعلته الشنيعة، المؤسسة على الكبر والكفر كما بين الله سبحانه وتعالى.وأمام هذا الإصرار والإنكار والمكابرة من إبليس نطق بالحكم النهائية والأبدية في حقه، قال تعالى: ﴿ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ الحجر:٣٤-٣٥].

وختم مشهد دور إبليس في قصة بدء الخليقة بهذا الحكم الرباني الثابت عليه وعلى ذريته إلى يوم الدين والذي لا يقبل الطعن أو الاستئناف.

٢,٢ مشاهد السنن الثلاث في الأفراد:

من مواعظ القصص القرآني التي تتجلى فيها الأطوار السننية الثلاثة قصة صاحب الجنتين، والتي جاء ذكرها في سورة الكهف في معرض التمثيل لفتنة

(١) نفسه.

المال على بني آدم، ويظهر فيها تلازم سنة العطاء والبلاء والجزاء قال تعالى: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴾.[الكهف:٣٢]

ويمكن لنا أن نجمل أطوارها اختصاراً دون ذكر تفاصيلها التي يمكن الرجوع إليها في سورة الكهف:

١. **العطاء:** بينت الآيات أنّ صاحب الجنتين أعطي جنتين من أعناب محفوفتين بنخل ويجري خلالهما نهر في مشهد بديع للناظرين وأعطي زيادة على ذلك مالاً وولداً.

٢. **البلاء:** ابتلي صاحب الجنتين بصاحب فقير أقل منه مالاً وولداً، لكنه أكثر منه علماً وصالحاً فأمره بتقوى الله في جنته وعدم الاغترار بما أوتي من زهرة الدنيا وحذره مغبة الكفران والعصيان، قال تعالى على لسانه:

﴿ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴾[الكهف:٣٩-٤٠].

٣. **الجزاء:** لم يسمع صاحب الجنتين لمواعظ صاحبه واستمر في ظلمه وطغيانه فحق عليه العذب وندم حيث لا ينفع الندم، قال تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرٗا ﴾ [الكهف:٤٢-٤٣].

ومن مشاهد هذه العبر في القرآن كذلك قصة قارون وقصة أصحاب الجنة، ويمكن تنزيل هذه السنن الثلاث عليها فهي جلية فيها، ولا يتسع المقام في هذه الورقات المعدودات لتفصيلها كلها، لهذا اكتفينا بالإشارة إلى مظانها من كتاب الله في قصص الغابرين.

هذا عن قصص القرآن الكريم أمّا عن قصص السنة المطهرة فمن أبدع صورها ما جاء في الصحيح عن قصة الثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى، وقد رواها البخاري بتمامها عن النبي ﷺ وخلاصتها: أنّ ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، بدا لله عز وجل أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكا، فأتى الأبرص فمسحه فذهب عنه، فأعطي لونا حسنا، وجلدا حسنا، وأعطي ناقة عشراء، وأتى الأقرع فمسحه فذهب وأعطي شعرا حسنا، وأعطاه بقرة حاملا، وأتى الأعمى فمسحه فرد الله إليه بصره، وأعطاه شاة والدا، ثم إنه أتاهم في صورتهم وهيئتهم الأولى، يسألهم الصدقة لوجه الله، فأعطاه الذي كان أعمى ورده صاحباه، فقال: له أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك.(١)

وفي هذه القصة أيضاً تتضح صور المراحل الثلاث، والخاصية الموجودة في هذه القصة أنّ الرجال الثلاث تمايزوا في مرحلة الجزاء فقد كوفئ الأعمى لنجاحه في امتحان الابتلاء بزيادة ماله بالبركة وتمام النعمة عليه ودوامها، وحلول رضوان الله سبحانه وتعالى عليه.

وعوقب صاحباه اللذان كفرا النعمة وجحدوها وبخلوا بما آتهم الله من فضله، وجحدوا فضائل الله الواصلة إليهم في أنفسهم وأموالهم، فخسروا في الامتحان واستحقوا العقوبة من الله فعادوا كما كانوا فقراء أصحاب عاهات قد قذرهم الناس وذهب ما كانوا فيه من نعمة وحلّ عليهم سخط الله.

٣,٢. مشاهد السنن الثلاث في الأمم:

لم تقتصر مشاهد هذه السنن الثلاث على الأفراد فقط بل هي موجودة في مسيرة الأمم كذلك، ومن أكثر تجلياتها في قصص الأولين ما أخبرنا به الله عزّ وجلّ عن بني إسرائيل، خاصة ما جاء مفصلاً في سورة البقرة والمائدة،

(١)صحيح البخاري، رقم: ٣٤٦٤، ج:٤، ص:١٧١.

وسأحاول على نفس منهج الاختصار السابقة ذكر المراحل الثلاث التي تحدثت عن بني إسرائيل مشفوعة بمواضع ذكرها من كتاب الله الكريم.

١. مرحلة العطاء:

ابتدأ الله سبحانه وتعالى خطابه لبني إسرائيل بقوله:﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة:٤٠]، ثم جاءت الآيات بعدها ففصلت هذه النعم، ويمكن لنا أن نعطيها عناوين مميزة بالشكل التالي:

٢. نعمة الأمن، في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:٥٠].

٣. نعمة الأمن الغذائي، في قوله تعالى:﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾[البقرة:٥٧].

٤. نعم الأمن المائي، في قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗا﴾[البقرة:٦٠].

٥. الأمن المناخي، في قوله تعالى:﴿ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ ﴾[البقرة:٥٧].

وكل هذه النعم الواصلة لبني إسرائيل والتي عددها الله سبحانه وتعالى في القرآن هي نعم لا جهد لهم فيها ولا تسبب، فالله سبحانه وتعالى فلق البحر لموسى عليه السلام ثم أطبقه على فرعون فهلك، وأنزل عليهم المنّ والسلوى يأكلونه رزقاً طيباً هنياً بلا مشقة، وحجب عنهم حر الشمس اللاهب بالسحاب العالي، وفجر لهم الماء العذب الفرات من الصخر الصلد القاسي.

٥. مرحلة البلاء:

بعد فصل العطاء جاء فصل البلاء والاختبار لبني إسرائيل في صورة أمر من الله جلّ وعلا على لسان موسى عليه السلام بدخول الأرض المقدسة وإقامة حكم الله فيها، بعد أن ذكرهم بنعم الله عليهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم

مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾[المائدة: ٢٠-٢١].

لقد كان ابتلاء أمة بني إسرائيل في تحقيق خلافة الله في الأرض، ولكن هذه المرة بجهدهم الخالص، وحذرهم نبي الله عليه السلام أنّ الفشل في هذا الامتحان ستكون عاقبته خسرنا يلحقهم.

٦. الجزاء:

رفض بنوا إسرائيل الانصياع لأمر الله وعصوا أمره وأمر رسوله، وكابروا في العصيان بعد مراجعة نبي الله لهم وحكى القرآن ردهم القاسي والجاحد لنعم الله والمتنكر لأمر نبي الله موسى عليه السلام، قال تعالى على لسانهم: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾[المائدة:٢٤].

عندما وصل إلى هذا الحد نزل فيهم عقاب الله الذي لا مرد له فحكم عليهم بالتيه في الأرض والشتات فيها مدة أربعين سنة ووسمهم الله بوسم الخزي والفسق، قال تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[المائدة:٢٦].

هذا مثال عن تمثلات هذه السنن في تاريخ الأمم الغابرة، من خلال البيان القرآني الخالد.

ولنا في سلف هذه الأمة تمثلات صادقة لها وصور مشرقة لتجلياتها، خاصة في سيرة الصحابة رضي الله عنهم أجمعين فيفيها صور ناصعة لمشاهد هذه السنن ويمكن أن نجملها اختصاراً دون كثرة تدليل وتمثيل فهي أظهر من نور الشمس في رابعة النهار:

١- **العطاء:** أعطاهم الله جلّ وعلا نعمة الهداية ببعث محمد ﷺ وكفى بها نعمة، ولم يكونوا قبل ذلك شيء مذكوراً قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ

رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الجمعة:٢].

٢- **البلاء:** وابتلاهم الله سبحانه وتعالى بالتكاليف فقاموا بها حق قيامها، وما تخلفوا عن نبيهم ﷺ في موقف من المواقف، والتزموا أمره حق الالتزام:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[الحشر:٧].

٣- **الجزاء:** حين قابل صحابة النبي ﷺ أمر الله عز وجل بالتسليم، وقابلوا أمر نبيه ﷺ بالطاعة والاتباع حل عليهم رضوان الله الذي لا سخط بعده، وحازوا سكينة القلوب وثواب الفتح، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨].

٣.القيم الحضارية المستفادة من قصة آدم:

من خلال بيان السنن الإلهية الثلاث التي مرّت معنا في قصة آدم عليه وعلى نبينا السلام سأحاول في هذا العنصر بيان أثر تلك السنن في القيم التي تجلت في حضارة الإسلامية، وهذا من خلال الرجوع أولاً إلى المسار التاريخي الذي مرت به حضارة المسلمين، ثم إلى بيان هذه القيم الحضارية التي كان لها أعظم الأثر في تفوق المسلمين الحضاري.

١,٣. تجليات السنن الثلاث في دورة الإسلام الحضارية:

وهي تمثل تجليات السنن الثلاث في صورتها الحضارية، فكل جيل يمر بالاختبار وينجح فيه يكن أمر الأمة في صعود وكل جيل يمر بالاختبار ويفشل فيه يكون أمر الأمة في نزول وهكذا إلى قيام الساعة:

١. مرحلة الصعود:

مثلت الفترة الممتدة من بعثة النبي ﷺ إلى نهاية عصر الخلافة الراشدة أزهى وأبهى وأنقى عصور الإسلام، حيث عاش المسلون تحت ظل النبوة ثم تحت ظل خلافة على منهج النبوة، وهي الحقبة الزمنية التي بدأت ببعثة النبي ﷺ في غار حراء وامتدت طوال عصر النبوة و عصر الخلافة الراشدة، ونجح الصحابة رضي

الله عمهم فيها كجيل متميز، شكر النعم والعطايا وقام بالتكاليف فصبر على البلاء والتزم فيه أمر الله عز وجل، فاستحق بذلك الخيرية بشهادة القرآن الكريم ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وبشهادة خير المرسلين حين قال:" خير أمتي القرن الذين يلوني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم."(١)

٢. مرحلة الأوج:

لما بلغ جيل الصحابة الأول بالأمة مرتبة حضارية عالية من حيث بناء القيم في المجتمع المسلم، وأسس بعلمه وعمله وجهاده وتضحيته لقيم حضارية كبرى، وطبعت سيرته الهادية خصائص الأمة لقرون مديدة، وعند انقضاء عصر هذا الجيل المميز تبعهم المسلمون بإحسان وثمروا القيم الذي تركها الصحابة رضي الله عنهم، وكان العقل المسلم المنضبط بنصوص الوحي هو آلة بناء تلك المرحلة التي ازدهرت فيها العلوم والفنون، واستمر عصرها الذهبي ما يزيد على الستة قرون.

٣. مرحلة الانحطاط:

تمثل الحضارات بتشكلاتها الخارجية المنتج البشري القاصر عن الكمال مهما بذل في تحسينه من جهد، لأجل هذا كان لزاماً أن يلحق الحضارات ما يلحق البشر من ضعف وقصور واختلال وهرم، لكنها رغم ذلك تكون أقرب إلى صورة الكمال كلما اهتدت بالحق واجتهدت في العمل، فإذا جانبت الحق واتبعت الهوى وحكمت غرائزها بدل عقولها كان أمرها إلى زوال وانحطاط، وهذا ما حدث حين جانب المسلمون منهج سلفهم الصالح وحكموا الغرائز وضعفت الروح وظهر فيهم داء الأمم السابقة، فظهر فيهم الفشل في الابتلاء ولم يكونا كسابقيهم فعقبوا بالتقهقر والانحطاط.

ولم تكن الحضارة الإسلامية بدعاً من هذه الحضارات، فهي وإن كانت من

(١) البخاري، رقم: ٣٦٥٠، ج:٥، ص:٢.

من أكثرها قرباً من مدارج الكمال إلا أنّ الهرم والضعف اعتراها بعد أن ظهرت فيها عوامل الانحطاط، وحكمت الغريزة مكان الروح، وأصبحت الدنيا مقصداً بعد أن كانت وسيلة، وإذا كان صعود الأمة الحضاري الأول سريعاً في الزمن فإنّ انحطاطها كان بطيء، والفضل في ذلك بعد الله عزو جل يعود لأجيال من العلماء العاملين والدعاة المصلحين الذين كانوا يظهرون في فترات زمنية متقطعة فيرممون ما انهدم من بنائها ويعيدون لها مجدها ولو إلى حين من الزمن، وهذا من صور رحمة الله بهذه الأمة، فقد جاء في سنن أبي داوود:" إنّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها."(١)

٢,٣. القيم المستفادة من قصة آدم:

بعد أن بينا مسار الحضارة الإسلامية الذي اعتمد مؤشر صعوده وهبوطه على مدى التزام المسلمين بشرع ربهم وبمنهج سلفهم الصلح والذي حوى أعلى القيم الحضارية وأغلها، سأحاول في هذا العنصر الأخير من هذه الورقة ذكر أهم القيم الحضارية المستفادة من قصة آدم عليه وعلى نبينا السلام، وسأذكرها مسلسلة في شكل نقاط:

١. قيمة العلم، والتي تجلت في أول مهمة قام بها آدم بعد خلقه إذ علمه ربه الأسماء قبل أن يكن الجنة وقبل أن يأكل ويشرب فيها، وفيه إشارة إلى أهمية العلم في بناء الحضارة الإسلامية، والتي تجلت في أوامر الشرع به ولا مجال هنا لتفصيلها فلتنظر في محلها.

٢. قيمة الحوار، وتظهر في حوار الله سبحانه وتعالى لملائكته ولإبليس ثم لآدم عليه السلام.

٣. من القيم المستفادة أنّ اتباع الشرع أصل ومنجاة واتباع الهوى والغريزة ضلال ومهلكة، فإبليس ضلّ بشبهة الخيرية التي منشؤها من الكبر، وآدم عصى بشهوة حب الخلود الملك التي منشؤها من الحرص.

(١) سنن أبي داوود، سليمان بن الأشعث أبو داوود، (بيروت: المكتبة العصرية)، رقم: ٤٢٩١، ج:٤، ص:١٠٩.

٤. لا قيام لحضارة بدون هداية من الشرع، فأول خلاص لآدم كان لما لقن من ربه كلمات هادية قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[البقرة:٣٧].

٥. من القيم المستفادة أنّ التدافع بين الحق والباطل بدأ في الجنة بين آدم عليه السلام وبين إبليس وسيبقى إلى أن قيام الساعة بين الحق والباطل وبين الخير والشر.

الخاتمة:

إنّ حركة الكون وحركة المخلوقات في هذا الكون، وحركة الأرض وحركة الإنسان في هذه الأرض كلها خاضعة لأمر الله الغالب وحكمه القاهر، ولا يكون في ملكه جلّ وعلا إلا ما يريد، فالكُل أمامه سواسية ولا تخفى عليه جلّ وعلا خافية، ومن كريم لطفه تبارك وتعالى بعباده أن هداهم لما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة، ومن أراد الهداية والرشاد فليجعل من كلام رب العالمين إماماً ومن شريعة الإسلام منهجاً.

وقد رأينا في مرّ من صفحات بعض صور هذه الهداية الربانية للبشر، من خلال قصة آدم في القرآن، عليه وعلى نبينا السلام والقصص الملحق بها كذلك والتي حاولنا تلمس بعض سنن الله في الأنفس والأفاق الموجودة فيها، يمكن الخلوص من خلال ما مرّ معنا إلى **مجموعة من النتائج:**

١- إنّ تفصيل القول في قصة آدم وإبليس في القرآن الكريم له حكم بالغة، ولا يراد به إشباع فضول بني آدم في سماع الأخبار، بل وراء ذكرها في مواضع متعددة حكم بالغة، فليس تكرارها في مواضع عدة من باب التسلية والإطناب، بل هو عرض متعدد لأوجه القصة حتى يتسنى للعباد الاسترشاد بها والاستفادة منها في العاجل والآجل.

٢- إنّ السنن الإلهية الثلاث التي تجلت في القصة حاضرة ومشاهدة في حياة الأفراد والجماعات، ومن خلالها يمكن معرفة مآلات كثير من تقلبات الأمم والأفراد.

٣- إنّ جيل الصحابة رضي الله عنهم هو خير جيل نجح بمجموعه في تثمير المراحل الثلاث، لذلك أجمع علماء المسلمين على أنّ هذا الجيل هو خير الأمة بعد نبيها ﷺ.

٤- هناك الكثير من الآيات القرآنية التي جمعت هذه السنن الثلاث في نظم بديع وبلاغة معجزة، وتقدمها على أنّها خلاصة حياة البشر، منها قوله تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[الأنبياء:٣٥].

٥- إن القيم التي استقاها المسلمون الأوائل من القرآن الكريم ومن سيرة خير المرسلين هي أساس نهضتهم الحضارية الأولى التي سادوا بها العالم وساسوه قروناً طويلة.

٦- إنّ تفعيل القيم الحضارية القرآنية في حياة المسلمين هو الطريق الصحيح لإعادة مجد الإسلام.

٧- إنّ الهداية بالقرآن منهج يسير عليه الأفراد والجماعات والأمم والحضارات، فالقرآن كتاب جمع في بين دفتيه كل ما فيه صلاح البشرية جمعاء.

٨- إن تدبر آيات القرآن التي نصت على سنن الله في الكون يبصر المسلمين بحالهم ومآلهم على هدى من كتاب ربهم.

والله الموفق وهو الهادي إلى سبيل الرشاد.

قائمة المصادر والمراجع:

١. أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ).
٢. أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، (بيروت: دار الفكر، ١٤١٥هـ).
٣. الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ).
٤. الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٧م).
٥. المعجم الوسيط، (القاهرة: دار الدعوة، د.ت).
٦. تاج العروس، محمد بن محمد مرتضى الزبيدي، دار الهداية.
٧. تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، (بيروت: دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٩٨٨).
٨. تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر ابن كثير، (دار طيبة للنشر والتوزيع: الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ).
٩. سنن أبي داوود، سليمان بن الأشعث أبو داوود، (بيروت: المكتبة العصرية)، رقم: ٤٢٩١، ج:٤، ص:١٠٩.
١٠. شرح العقيدة الطحاوية، محمد بن علاء الدين ابن أبي العز الحنفي، (الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية، والأوقاف والدعوة والإرشاد، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ).
١١. شفاء العليل، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، (بيروت: دار المعرفة، ١٣٩٨هـ).
١٢. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، (دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ).
١٣. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

١٤. لسان العرب، محمد بن مكرم ابن منظور، (بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ).

١٥. مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، (المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦هـ).

١٦. مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل، (مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ).

١٧. معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر، (عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ).